مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) / ج وهران02/ المجلد 11 ع 03/ 16 /06 / 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الآخر المحلي بين الرواية العربية والرواية الجزائرية

The local other between the Arabic novel and the Algerian novel

د.بلحر ياقوت Dr Belhor Yakout yakout_0804@yahoo.fr	نقد معاصر	كلية اللغات الألمانية والروسية/جامعة محمد بن أحمد وهران2/الجزائر

DOI : 10.46315/1714-010-003-032

الإرسال: 2020/06/25 القبول: 2020/12/18 النشر: 2021/06/16

ملخص :يعالج هذا البحث جدلية الأنا والآخر بين الرواية العربية عامة، والرواية الجزائرية خاصة. إذ لا توجد "أنا" بمعزل عن "الآخر"، ولا آخر بمعزل عن الأنا، حيث يعكس هذا الآخر صورة الأنا، وعليه فجرت هذه الجدلية قضية الهوية العربية في خضم الصراعات الحضارية والتي أظهرت أكثر من مرة انهزامية هذا الأنا العربي أمام الآخر الأجنبي من جهة، وانهزامية الأنا الجزائري أمام آخره المحلي من جهة أخرى. فهل هذا الآخر دخيل على الهوية الوطنية أم هو متجذر فيها، ولم تسهم الأحداث الروائية إلا في تجليته؟ ففي الرواية الجزائرية قد نصطدم بصور متعددة لهذا الآخر، فنجد الأجنبي، والحاكم، فالإسلاموي، فهل ينتهي الأنا نفس النهاية؟.

كلمات مفتاحية: الأنا؛ الآخر؛ الرواية الجزائرية؛ الرواية العربية؛ الاخرية.

Abstract: This research deals with the dialectic of the ego and the other between the Arabic novel in general and the Algerian novel in particular. This dialectic exploded issue of Arab identity in he midst of civilizational conflicts, which showed more than once the defeat of this Arab ego against the foreign other, on the one hand, and the defeat of the Algerian ego in front of the local other; on the other hand. Is his other an intruder to the national identity or is it rooted in it, and did the fictional events only contribute to its manifestation?

Keywords : Ego ; Other, Algerian novel ; Arabic novel ; Otherness.

1.المقدمة:

إنّ ثمة علاقة تلازم بين صورة " الذات" وصورة "الآخر"، فاستخدام أي منهما يستدعي – تلقائيا- حضور الآخر، ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن الطبيعة الآلية التي يتم وفقا لها تشكل كل منهما، ذلك أن صورة "الذات" لا تتكون بمعزل عن " صورة الآخر"، كما أن صورة الآخر تعكس – بمعنى ما- صورة للذات. فالأنا هو نسق تصوري تطوره الكائنات البشرية، سواء أكانت أفرادا أم جماعات، وتتبناه، وتنسبه إلى نفسها، أمّا مفهوم الآخر، فهو عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما، أو جماعة ما إلى الآخرين. ومن تم فإنّ الأنا والآخر صورتان قابلتان للتغيير والتعديل.

و إذا حاولنا الاقتراب من جدلية الأنا والآخر في النص الروائي العربي، نجد أن الصراع بين الأنا والآخر يتمظهر كصراع بين قيم وتفكير الاتجاهين، مثلا بين قيم القديم وعقليته ونمط حياته ، وبين قيم الجديد وتفكيره وعقليته ونمط حياته. كما يشير إلى ذلك حسن حنفي في قوله:" إنّ جدل الأنا والأخر هو

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الصراع بين الجديد والقديم على مستوى الحضارات وفي مسار التاريخ، يحدث عند كل شعب، وعلى مستوى الدوائر الحضارية الكبرى" (حنفي، 2000). فالآخر يتحدّد طبقا لحاجات الأنا. فبين الأنا والآخر " مسافات متنوعة. وهي مسافات لا تخلو أبدا من وسائط مختلفة بين الطرفين" (لبيب، صفحة 23).

والرواية تكاد تعد " فن الآخر"، على حد تعبير جورج طرابيشي الذي يرى أن " الرواية العربية ما كان لها أن ترى النور قبل صدمة اللقاء بالغرب، وأنها بنائيا قامت على وجود البطل " الآخر" ضمن إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب" (لبيب، صفحة 38). وبذلك تكاد تكون مقولة " الآخر" مؤسسة للرواية العربية، إن لم نقل إن أوّل رواية عربية استكملت شرطها الفني، خصصت صفحات مركزية لمشكل لقاء الحضارات.

وقد لا ينكر أحد أنّ الرواية العربية قطعت شوطا كبيرا في وعي الآخر، بدءا من " رحلة الشيخ علم الدين" لعلي مبارك، و" حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي إلى عشرات الروايات التي كتبت في السبعينات والثمانينات تقصيا لوضع الآخر في وعي الروائيين العرب. فصورة الغرب في الرواية والقصة قد عولجت باتساع، كموضوعات وأفكار وعلاقات سياسية واجتماعية، فلا ينبغي أن ننسى " أن الغرب بالنسبة لجميع الشعوب المتخلفة التي تربطها به علاقات تاريخية، يعتبر جزءا من كيانها الذاتي، لهذا يصبح موضوع إثارة قضية الغرب عملية مشروعة، و قائمة في صلب إشكالية الواقع الاجتماعي الوطني" (لحميداني، 1985).

و يؤكد عبد الله العروي أن " أي فكرة معينة عن الغرب تكمن في وعي كل واحد" (العروي، 1970) منّا، فقد عني باحثون كثر بالتجليات الروائية والقصصية لعلاقة الشرق العربي بالغرب الأوروبي و أبرزهم جورج طرابيشي في كتابه " شرق وغرب" (طرابيشي، 1977)، و محمد كامل الخطيب في " المغامرة المعقدة" (الخطيب، 1976)، ونبيل سليمان في " وعي الذات والعالم" (سليمان، 1985)، وعصام بهي في " الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة" (بهي، 1991)، ومنصور قيسومة في " الأنا والآخر في الرواية العربية الحديثة" (قيسومة، 1994)، ومحمد نجيب التلاوي في" الذات والمهماز : دراسة التقاطب في الصراع روايات المواجهة الحضارية" (التلاوي، 1998).

وهكذا راجت ظاهرة في النصوص الأدبية حتى مطلع السبعينيات،" يتبدّى منها زعزعة ثقة العرب بأنفسهم لرجحان كفة الأوربيين المتغطرسين"(ابو هيف، 2002).، حيث اعتمد المؤلفون العرب نموذجا خاصا من الشخصيات الأوربية التي ليس لها إلا وظيفة أساسية واحدة هي تأكيد التفوق العربي على الأوربيين من الناحية الحضارية والأخلاقية.

فجدلية الأنا والآخر وجدت عمقها وتوترها في النص الروائي العربي المعاصر، الذي يهتم بطرح مجموعة من الإشكاليات ذات أبعاد حضارية، ثقافية، عقدية وطبقية، حيث تعد الهوية من أهم المشاكل الثقافية التي شغلت رواية الأنا والآخر. فكيف عالجت الرواية العربية صراع الأنا والآخر؟

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

.2ملامح الآخرية في الرواية العربية:

1.2. الآخرية والرواية العربية:

إذا تدرجنا من إشكالية الرواية العربية المعاصرة، و أحقّيتها لأن تكون الجنس الأدبي الأقدر على التعبير عن علاقات الإنسان الحديث المعقدة، سواء على صعيد الذات أو على صعيد فهم الآخر والكون، يتوجب علينا الخوض في عدد من التساؤلات التي تتزاحم بذهن القارئ، من مثل هل الأنا العربية تتناقض مع الآخر؟ هل الأنا تمثل الصديق والآخر يمثل العدو؟ هل هناك صراع حتمي، بين الأنا والآخر، أم انسجام وتكامل بينهما؟

يبدو – من الوهلة الأولى- أن الرؤية ما تزال تغشاها ضبابية حتمية، حيث الأنا لم يلبث يبحث له عن وجود في الآخر، لا سيما وأنّ " الأنا" لا تتجلى ذاتيته إلا بوجود الآخر، فالصراع أو بالأحرى اللقاء بين "الأنا" و"الآخر" يظل حتمية قائمة في ظلّ الـ "هنا" والـ"هناك" حيث يبقى هذا اللقاء رهين إحساس مزدوج (الانجداب/ النفور)، (التوافق/ الاختلاف). حيث إنّ العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" هي الخيط الناسخ للنص الإبداعي.

و في الخطاب الروائي العربي نلمس أن الآخر يبقى عدوانيا بدرجة أولى، إذ لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب مغلوب، فمن الواضح أن " الآخر" هو "تعبير عام يغطي الحالات التي يعترف فيها بالاختلافات اللغوية والثقافية الأخرى والتي تشكل الأساس لهوية " النحن"، والاختلاف هنا هو في دائرة (التعريف) كعلاقة عداء وعنف بين (نحن) و (هم)" (لبيب، صفحة 55) ، حيث إنّ التمييز بين "نحن" و "هم" كان يجري التعبير عنه بمفاهيم من نحو " صور العدو" و " الآخر العدو". وقد بدأ حضور " الآخر" الغربي مع تنامي مشهد النهضة الحديثة، وما صاحبه من تبلور للوعي القومي الذي أخذ في مساءلة و تأويل معنى الآخر، وكانت "عودة الروح" لتوفيق الحكيم أول رواية عربية تتعرض لإشكالية لقاء الحضارات، وتلاها عدد من الروايات من نحو " موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح،" الحيّ اللاتيني" لسهيل إدريس وغيرها كثير، حيث خضعت هذه الروايات إلى مبدأ التجنيس الحضاري، أين الآخر الغربي هو الأنثى الغربية.

إذن، التوجه إلى معرفة الآخر الغربي في الكتابة الروائية العربية، بدأ منذ مفتتح القرن الماضي مع الرحلات العربية، التي خلخلت الاصطدام الحاد بالغرب، فـ" رؤية الآخر بدأت مثقلة بالكنائية، القائمة على المفارقات الأنثروبولوجية، والتأسيس على (النحن) و(الهم)، أو الحديث عن أزلية الصراع بين الشرق والغرب على نحو يلغي تاريخيته، أو غياب الإحساس به بتجريده من طابعه المتوتر، وإسباغ أناقة المبارزة الأرستقراطية عليه" (السعفي، 1992)، وكلها ملامح تبدت في أعمال الأربعينيات والخمسينات القصصية.

إذن، معالجة صورة الآخر في الأدب العربي، انطلقت مع أول صدام مع الآخر، فـ " نحن والغرب مناظرة بين كلمتين أو بالأحرى بين عالمين وتاريخين وكيانين تربطهما علاقة شعور تولد عن مزيج متناقضات،

خجل وتباهي، إعجاب وازدراء، إقبال وعزوف، رغبة فيه ورغبة عنه" (السعفي، 1992). إذ ما لبث الأنا العربي يبحث عن وجوده في الآخر في محاولة لولوج هذا الآخر متوجها إليه بغية اكتشاف حضارته، فمن الانبهار بتطوره، وتقدمه الحضاري، إلى العداء نحوه. وقد صاحب هذا العداء عقدة الانتقام من الآخر؛ التي احتواها في بادئ الأمر وقع التجنيس الحضاري، إذ أضحى الأنا العربي يرى الآخر الغربي في صورة الأنثى، فتحول الصراع بين الأنا والآخر إلى صراع بين الرجولة والأنوثة.

فوقع التجنيس، الذي عرفته الرواية الحضارية، يرجع إلى أن " علاقات الرجل بالمرأة في ظل الحضارة الأبوية – التي هي حضارتنا- كانت منذ ألوف السنين ولا تزال علاقات اضطهاد وسيطرة" (طرابيشي، 1977، صفحة 6).

ولا ينكر أحد أن ثنائية الرجولة/ الأنوثة، عرفت ازدهارا عظيما في عصر الفتح، والاستعمار والعنصرية. ففضائل الرجولة لم يتغنّ بها أحد كما تغنى الأدب الأوروبي الكولونيالي، أدب البعثات والحملات والاستكشافات و الفتوحات. فالعلاقات الكولونيالية تستتبع بطبيعتها انفلاتا للمشاعر الجنسية:" فالرجل الأبيض يعتقد ويتصرف على أساس أن جميع نساء المستعمَر مباحات له، ويرد الرجل المستعمَر بتطرف مماثل؛ إن كل امرأة بيضاء مشتهاة، ونقاء بشرتها دعوة دائمة إلى الاغتصاب" (طرابيشي، 1977، صفحة 10).

وليس من قبيل المصادفة، من وجهة النظر هذه، أن تكون جميع الروايات العربية، التي عالجت ما اصطلح عليه بالعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، ابتداء من " عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، مرورا بـ" الحيّ اللاتيني " لسهيل إدريس، وصولا إلى "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، قد اختارت مدينتي باريس ولندن إطارا مكانيا لها، أي بالتحديد حاضرتي الدولتين المتروبوليتين السابقتين،"فكأن الغرب ليس غربا إلا في هاتين العاصمتين، وكأن الشرق ليس شرقيا إلا فيهما، وكأن لا معنى للتحدي في غيرهما" (طرابيشي، 1977، صفحة 12).

ومن جهة أخرى، قد يكون تجنيس العلاقات الحضارية في الرواية، ضرورة فنية ورمزية، ولكنه لا يكون مقبولا إلا على أساس واحد، وهو " تصور العلاقة بين الرجل والمرأة، علاقة تساو وتشارك وتكامل، لا علاقة سيطرة وتحكم من جهة، وانقياد من جهة ثانية" (طرابيشي، 1977، صفحة 17).

و على العموم، يظل بطل هذا النوع من الروايات ذكر شرقي، بينما يضطلع بدور البطولة الثانية أنثى غربية، فالإشكالية الحضارية تنزع إلى أن تتلبس طابعا جنسيا صريحا. فالبطل الروائي الشرقي الذي افتقد المرأة في مجتمعه لم ير أحدا – لدى الآخر- سوى المرأة، وقد كان يسيرا عليه أن يوهم نفسه، بأنّه لو نال من المرأة الغربية فقد نال من الغرب كله.

وبتطور النموذج الروائي اتسعت رؤيا الآخر، حيث تم تجاوز هذه الثنائية، وأضحت صورة الآخر تعالج كموضوع، وأفكار، فمن علاقة الغرب بالشرق في إطار التجنيس الحضاري، إلى توسيعه ليشمل صورة البطل المناضل، والمثقف المهزوم في وطنه أو المنفي عنه، نحو رؤية تاريخية، وواقعية، حادة المصائر في

العلاقة بين الشرق والغرب، كما نوه إلى ذلك نبيل سليمان في كتابه " وعي الذات والعالم"، حيث صنف الآخر الإسرائيلي، و وجه الاهتمام بلقاء على أرض الوطن، بعد أن كان اللقاء على ارض الآخر: فرنسا، بريطانيا، ألمانيا...إضافة إلى تشخيص ظواهر جديدة لوعي الآخر، مثل الانكفاء والتدميرية، حيث جسد الهزائم العربية، ومثل النسوية و وعي الذات، فبعد أن كان الكاتب الذكر هو الذي يجنس العلاقات الحضارية أضحت الكاتبة الأنثى تقدم نساء عربيات مع رجال غربيين.

غير أن جدلية الأنا/الآخر لا تعني بالضرورة أن الأنا عربية، والآخر غربي، ففي " إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني، نرى أن الآخر يمثل الريف، وفي رواية "رامة والتنين" لإدوارد الخراط تتمثل الجدلية في الديانتين الإسلامية والمسيحية، ومن ثمة أضحت الجدلية تركز على الأنوات، وأشكال الأنا المتصارعة مع ذاتها،" فالآخر ليس بالضرورة البعيد جغرافيا، أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها ويحارب بعضها البعض الآخر" (حيدر). فتبادل النظرة داخل المجتمع العربي الواحد يكتسب مضمونا اجتماعيا تتنوّع فيه أشكال الصراع وآلياته، فتتضح التراتبية والانقسامية. وحيث إنّ في كل ثقافة تاريخ عداوة، كان هناك "آخر النحن" أو ما يدعى بـ"الآخر المحلي" أو "الآخر القريب"،والذي امتد فيما اتخذه الآخر البعيد من صور مختلفة.

وفي هذا الإطار نجد عبد الله أبو هيف (ابو هيف، 2002) يقدم لنا نماذج لخمس روايات تجلى فيها التقرب في وعي الآخر في الفكر العربي الراهن من حيث هو مكان للحرية ومصدر للتغيير، تجاوز وعي النسوية للذات والآخر بإعمال مبضع النقد في الشروط التاريخية، هجائية الذات المتأزمة من خلال نقد الآخر المستعلي والمهيمن، والآخر كسبيل لنقد الذات القومية من خلال إثارة مشكلة الطائفية وما يواجهه المسيحيون في مصر.

- فرواية "مراتيج" (النالوتي، 1985) تدور حول استغلاق الوعي، إذ ترمي الروائية ببطلها التونسي، و أناه العربية إلى حضن الآخر- تحديدا باريس- لهيم بحثا عن خلاص روحه وحرية وطنه، إذ يخوض مع آخرين، في مستنقع السياسة المحرمة دون جدوى. ورغم نبل غاية الأنا العربية، إلا أنها انطلقت بمفهوم خاطئ عن الآخر، فكان نهج سياستها غير مجد، فهي لا تحقق ذاتها وانتصاراتها إلا في مخيلتها، حيث نسجت أحداث الرواية حول ذاكرة مشدوهة، أو موشومة، تنم عن العجز وعدم الفاعلية، في ظل استمرار الماضي. فقد آثرت الروائية تجاوز غنى الرواية وموضوعها، لتحاور هواجس و خيالات الماضي والحاضر في تجربة لفظية، تفتقر إلى الفعلية والحد المناسب من الصراع التاريخي، والاجتماعي. إذ جعلت من الذاكرة مسرحا لها، تبحث في حنايا الماضي، و وقائع الطفولة المنهوبة متغاضية عن الواقع الحاضر، مخدرة نفسها بالأماني المستحيلة.

- أما رواية " من يجرؤ على الشوق؟" (نعنع، 1989) فهي تصور جانبا آخر لانهزامية " الأنا العربية" التي تمثلها نرجسية المثقف الانعزالي المغترب الذي يركن إلى وضعه الجديد متغافلا عن حقيقته، وحقيقة الآخر، فهو ينشد الحرية في حضن الآخر، متناسيا مأساة وطنه، ممّا يخضع الرواية في نقد

الممارسة السياسية العربية. إلاّ أنّها لم تتعمّق بصلب العلاقة بين وعي الذات ووعي الآخر، إذ غيّبت الذات في غمرة انخراطها في حياة الآخر، مما جعل وعي الآخر يؤول إلى مجرد نعي لقدر أمة تنحدر نحو التردي والخلافية و العماء، وهو مظهر من مظاهر تأزم الذات العربية.

- ومرثية أخرى تطل علينا في رواية " حبل السرّة" (المانع، 1990) التي تمعن في تأمل الذات العربية في موضع الآخر إياه، دون عناية بقضية وعي الآخر أو تلازم وعي الذات والآخر، ومما يفاقم حدة هذه المرثية مقارنة ما يحدث في الوطن بما آل إليه الآخر من تقدم وتحضر ومدنية، فتواجه النسوية حينذاك ذاتها بمواجهتها للعالم، إذ غلب على الرواية طابع النجوى المدعم بالجدل الفكري والسياسي، مم دعا إلى الموازاة بين المبنى الواقعي والمبنى الرمزي الذي جعل منها مرثية مفعمة بدلالات الحزن النبيل على مصائر فردية. فتعتبر بذلك مصير قومي مثخن بالجراح.

- ونستكمل مسلسل الانهزامية مع " مدينة الرياح" (ولد ابنو، 1998) التي تكشف عن تغييب الذات التي حكم عليها أن تكون حفرية في مختبر، إذ يجاهر بأسئلته القلقة حول الهوية والقومية فالذات العربية منقسمة بين ماض وحاضر ومستقبل، وموزعة بين انتماءات متعددة، وقد عمد ولد ابنو إلى بنية فانتازية لروايته، وأشبع سرده بالمأثورات الشعبية و الثقافة الشفهية، والمظاهر الاثنية والأنثروبولوجية لتصوير هوية مغيبة تحت وطأة الآخر الغربي الغازي، فهي رواية ساخرة تنقد الذات القومية المهدّدة من خلال نقد الآخر المستعلي والمهيمن.

- أما "بيضة النعامة" (مسعد، 1995) فهي ترى في الآخر سبيلا لتحقق الذاتي الفردي، فالراوي يتحرك بحرية خارج وطنه، بينما تقيد حريته داخل وطنه ومع أبناء وطنه، ولطالما أطلق الراوي العنان لمباهجه و أفكاره في جنة الآخر ومقياسه الحضاري الفائض، ولطالما احتسبت رؤيته للذات الفردية بالتطرف والعنف والإرهاب والتضييق على الحرية، إنّه يصف الآخر بحنين مؤرق، ممتع، وباعث على الحسرات في الوقت الذي يصف فيه مرارة الواقع وقسوة الحياة، وتتفاقم رؤية الواقع والذات قسوة كلما جرى الحديث عن شأن عام.

ومن ثم نخلص إلى أن هذه النماذج، تصور لنا أشكال "الانهزامية" التي علقت بالأنا العربية في صراعها مع الآخر – أو بالأحرى- في رحلتها للبحث عن وجودها. وقد اختلفت نسبة المعالجة؛ فمن نزوح للخيال إلى اعتقال بزنزانة النرجسية إلى عزف أنشودة الرثاء، إلى البحث عن ذات اندثرت تحت قهر الاستعمار، فأضحت مجرد أثر أو حفرية في مختبر، فجنوح هذه الذات إلى الهروب؛ إذ لم تعد ترى وجودها إلا في الآخر، فالآخر أضحى السبيل الوحيد لتحقق الذات الفردية مما جعلها تفر من واقعها المرير، وتتنصّل من ذاتيتها متماهية مع الآخر، بل مرتمية في أحضانه. ... وتبقى رحلة الذات للبحث عن هويتها رهينة عمق الإدراك لوعي الآخر.

2.2. الآخرية في الرواية الجزائرية:

سبق أن أشرنا إلى أنّ الرواية العربية، بدأت معالجة هذا الآخر مع ظهور الرحلات إلى الغرب. ونحن اليوم بصدد البحث عن ملامح تبلور هذا الآخر في الرواية الجزائرية، إذ تبقى " سيدة المقام" هي النموذج الأول المعول عليه في هذه القراءة لتقصي الآخرية.

وقبل أن نجلّي عن ملامح هذه الصورة، تجدر بنا العودة قليلا إلى الوراء، لنعرج على بدايات الرواية الجزائرية، فغنيّ عن القول إنّ الرواية الجزائرية متأخرة نسبيا من حيث الظهور مقارنة مع الرواية العربية.

ويرجع تأخر الحركة الروائية الجزائرية، إلى تفضيل الشعر والمقالة، بوصفهم وسيلة للمساهمة السياسية في التحرير قبل أن يكونا خالصين للفن، ولما اندلعت حرب التحرير كان وقعها أكبر وأسرع مما تقتضيه الكتابة الروائية من اختمار وتأني، فانساق الأدباء يواكبونها بطريقة تسجيلية، هي أقرب إلى التقرير منها، إلى النضج الفني المنشود.

أما عن موضوعة الأنا/الآخر، فليس لنا أن نقول إن للآخر الجزائري خصوصية ما، لكنّا تعودنا مع رواية الأنا والآخر، أنّ البلد المحتل هو دوما الآخر بالنسبة للبلد المستعمَر، فتكون إذ ذاك عاصمة هذا البلد هي مركز الانتقام من هذا الآخر. كما كان الحال مع باريس ولندن، فيما يختلف الأمر مع المنتوج الروائي الجزائري، إذ لم نذهب إلى باريس غرض الانتقام من هذا الآخر الفرنسي، بل ركننا إلى أنفسنا نصف، ونعدّد، وندين همجية هذا الآخر أيام الثورة ومخلفاته بعدها.

وقد يبدو جليا، أنّا حين نتحدث عن الآخرية في الرواية الجزائرية يقفز إلى الأذهان أدب المقاومة وكتابات الواقعية الاشتراكية، وذلك لأن في الكتابة الروائية الجزائرية بلورته الأبحاث، ولم يعش على رواسب الاستعمار.

فالآخرية في الرواية الجزائرية لم تمش في مغبّة الانتقام من الآخر بتأنيثه، وما إلى ذلك، بل انشغلت بكشف خبايا الثورة، فخطّت مسارها تبعا لظروفها، فلا ينكر أحد أنّ هاجس الرواية الجزائرية سياسي بالدرجة الأولى، إذ أوّل ما تحرّر الحرف العربي قفز إلى الصورة " الآخر الفرنسي" في أدب الثورة. ومن خلال مقاربة لصورة الفرنسي في الرواية الجزائرية، يتم استخدام أدوات سياسية. و إيديولوجية رسمت صورتين (حيدوش، 2003):

الأولى صورة ثابتة: يحدد ملامحها التعارض القائم بين الذات والآخر المضاد لهوية هذه الذات، وهي صورة المستعمر الذي تتفق كل الروايات على إدانته وكشف وجه الشرّ فيه. ويلمس أحمد حيدوش وجود صورة متحولة تختلف من كاتب إلى آخر لكنها تكاد تجمع على أن الآخر ليس شرا كله وينبغي الاستفادة من إيجابياته.

واستنادا إلى ما سبق، قد يحق لنا القول إن الآخرية في الرواية الجزائرية انطلقت إثر الصدام الاستعماري، فأول ما انطلقت الكتابة الروائية باللغة العربية، قفز إلى الصورة " الآخر الفرنسي" في أدب المقاومة، ثم "

الآخر المحلي" في الكتابات التي تناولت الصراعات الطبقية والثورة الزراعية، سيما وأن الشيء الوحيد الذي عرف التغيير غداة الاستقلال، هو وجه الاستغلال، فإذا كان في مطلع القرن العشرين ممثلا في الاستعمار، فإنّه في أواسطه يتجسّد من خلال حكام الاستقلال. وقد نشير في هذا الشأن إلى رواية " نوار اللوز" (واسيني، 1982) والتي تلمح إلى مستويات تبلور الآخر في روايات هذه المرحلة، من حيث إن هذه الرواية تعالج مأساة متأصلة بعمق الهوية العربية، من سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن مصالح العباد، إذ ما يزال العامة يرزحون تحت قيد العبودية، فمن عبودية الرق إلى عبودية الاستعمار إلى عبودية المصلحة، فتلك مأساة تجذرت من سالف الأزمان تدعمها ثنائية (القوة/ الضعف)، ولا حل غير الحرب، مما قد يتوافق مع رأي واسيني الأعرج إذ يرى إنه " منذ وجدنا على هذه الأرض، وإلى يومنا، والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة " (واسيني، 1982). فوفق هذا النموذج الروائي يظهر أول صدام مع الآخر مع الصدام الإداري؛ الذي راح ضحيته رئيس البلدية "حتى رئيس البلدية بودلخة يا صالح...حارَبُوه حتى الموت، حين ... هددهم بإخراج ملف سرقة إسمنت المدار... في العاصمة "(واسيني،1982). إذن، أول ضحية لهذا الصراع العدائي، تعلن عنها سطور الرواية هي رئيس البلدية "بودلخة"؛ لأنه انتفض ضد الفساد الإداري، أما الخياري فقد انتحر سخرية من هذا الواقع، الذي انقلب يمشي على منابت شعر رأسه "مسكين الخياري، اغتاظ ... حين فوجئ بقبور الشهداء تباع لغير الشهداء والأنبياء... " (واسيني، 1982، صفحة 28)، فيما قتل لخضر لأنه اضطر لامتهان التهريب لتوفير لقمة العيش "البارح فقط قتلوه ...انتزعنَ طفولته وأحلامه" (واسيني، 1982، صفحة 17) ما قوقع الأنا في دائرة الموت، فلم يبق لها أي حل آخر على رأي صالح "يا تخرج من الدائرة... تركبه" (واسيني، 1982، صفحة 12) وهكذا تبقى حلبة الصراع مفتوحة لمسلسل موت مجهول النهاية "صدقني يا لخضر ...يا وليد البلاد" (واسيني، 1982، صفحة 17).

و حيث إنّ " الآخر" في الرواية الجزائرية، قد بلورته الأحداث – كما سبق الذكر- انفجرت صورة أخرى لذات الآخر المحلي، لكنها صارخة الهمجية، في إطار الكتابات التي حاولت أن تعالج مأساة العشرية الحمراء، أو ما يسمّى بكتابة العنف. وقد نشير هنا إلى روايات العشرية الحمراء إذ "الأنا" تستمد حضورها من "النحن" الذي يحيل على الشعب، حيث ترزح هذه الذات تحت وقع السياط السلطوي الذي لا يجد متعته إلا في قهر هذا الكيان، وكأنه يسعى لإخصاء ذاته، ومحركه في ذلك كراسي السلطة، فبعد أن كشفت أوراق اللعبة السياسية، وانسدل الستار عن أبطال المسرحية التي لم تجد لنفسها عنوانا غير "السلطة لي أو لي" تعرت النفوس وعادت الذات العربية إلى بدائيتها الأولى واسترجعت لسانها ألا وهو السيف ولغة الدم.

وإذا اتجهنا نحو رواية سيدة المقام لواسيني الأعرج، نجد الانطلاقة "رصاصة خرجت من مسدّس لا يعرف صاحبه مطلقا أنه هو صاحب الكارثة" (الأعرج، 2001)، وكأنّه يوحي إلى أنّ مفجّر الأزمة الدموية لم يقصد أبدا ما حصل، إنّما كان مجرد وسيلة أو أداة بيد مجهولة وتظل مجهولة مهما أوّلنا

الدوافع المتواترة، وهنا كان مفصل الجسد عن الرأس، بل نقطة انطلاق البعد الآخري الذي لم يمسّ الجزائر فحسب؛ إنّما عبر القطر العربي والإسلامي ككل، إن لم نقل العالم بأسره.

وإذا عدنا إلى ثنائية (الأنا/الآخر) نجد أن أغلب الروايات الجزائرية التي عالجت أحداث العشرية الحمراء، جاءت مواجهة عنيفة مع الموت، فهي كتابة محورها الفاجعة والأنا والآخر؛ حيث إن الفاجعة تعد "الوحدة المركزية في عنصر الصدام مع الآخر وحتى مع الذات" (بعلي، 29/28 أكتوبر 2001) . حيث أضحت الكتابة "بحثا عن الحياة، فهي حوار نصّي بين الحياة والموت" (بعلي، 29/28 أكتوبر 2001)، وبفعل تنامي الخطاب قد تتجلى بعض خصائص "الأنا" من جهة، وطبيعة علاقتها بالآخر على اختلاف مستوياته من جهة ثانية، وذلك بالوقوف على عدد من الظواهر أهمها: العنف، الخوف، الهمجية، الموت... والتي أسهمت في خنق الأنا الرافضة، التي تعيش أزمة حرمان، واغتراب الذات في قمع وحشي، وإحساس حاد بالعجز. هذا الإحساس الذي ولّد هوس اللذة؛ لذة اللجوء إلى الآخر(المرأة ارض الآخر)، ولذة الانغماس في الذاكرة الجريحة المثقلة بآلام الماضي، والتي جعلته يتخبط بين عبثية الموت وعبثية الاغتراب، ولا متنفس له إلا الكتابة أو الهجرة أو الانتحار، أو الرضوخ لعبثية الجنون فـ"في بلاد ميكي هذه، يصادرونك حتى في أدنى حقوقك. البلاد الوحيدة في العالم التي يخافون فيها عليك من نفسك؟" (الأعرج، ذاكرة الماء، 2001).

وإلى هنا تجدر الإشارة إلى أن كتابة العنف، خصوصية تلبست بالرواية الجزائرية، بعد أن تواجدت على الساحة الأدبية العربية الرواية الحضارية، ثم رواية الصراع العربي الصهيوني، وقد جاءت كتابات العنف، لتصبغ الكتابة الروائية الجزائرية بخصوصية فنية، ومجتمعية خاصة. فهي تحاول تصوير المأساة الجزائرية في سنينها الحمراء. إذ ظهرت كتابات عدة منها ما صنف في إطار الأدب الاستعجالي، في حين رقت أخرى إلى تصوير عمق المحنة..

.3.الخاتمة:

ولا يفوتنا هنا، أن نذكر أنّنا تعودنا مع الرواية العربية أنّ "الأنا" يسعى دوما إلى تأنيث الآخر، بيد أنّه مع النصوص الجزائرية ما يزال " الآخر" يعمد إلى إخصاء "الأنا"، ترى لأنّه " الآخر-المحلي"؟ فما الفروق الفاصلة بين معاجة الآخر-البعيد"و" الآخر المحلي"؟ هل هي أيديولوجية الكاتب؟ أم هو الواقع؟ أم قد تنسجها انسيابية النص الأدبي؟

فالآخر يظهر دوما في حلة العدو، ولا مجال للحوار مع الأنا، لا جدوى من تسول الحوار من طرف لا يحمل بذور هذا الحوار. إذ " ليس هناك حوار حقيقي بين "أنا"نا و"الآخر" الملموس المرتسم قلقا في أفق تساؤلاتنا اليومية...الحوار مع الذات لا يكفي...إذ ليس هناك حوار داخلي؛ فالآخر الذي تدّعي الأنا محاورته ما هو إلاّ "الأنا" منعكسة على مرآتها" (حيدوش، 2003). سيما أنّ الحوار الصادق، الحقيقي والشفاف مع الآخر هو العودة المعمقة في مرآة الذات.

فالأنا العربية منذ فجرها الأول " يخيّم فوقها شبح اسمه "الآخر" ويتغيّر شكل هذا "الآخر" في بنيتها الذهنية، بقدر ما تتغير الحقب والأوضاع اجتماعيا، ثقافيا، سياسيا، اقتصاديا، عرقيا، جنسيا...الخ"

(الدراجي، 2000). فأحيانا قد يشعر المرء أن الأنا العربية لم يعد لها شغل شاغل سوى إنتاج آخر إثر آخر.. حتى أضحى الآخر " هو الشطر الدائم في الذات، زحام احتلالي دائم، يستلزم التعرف على الأنا. فيما سيبدو التعرف على الآخر في ذات تحضر إلغاءها و حضورها، والآخر هنا ذلك الذي يضمره الأنا كمنتصر والأنا مهزومة، حيث يجري تعنيف وتهجير الأنا بوصفها بعدا إنسانيا وهو في اضطرار مكوثه وتوطنه مع ذلك الأخر، " بحيث تفرض الضرورة البحث عن المشترك الإنساني أكثر منه عزلة الهويات المتوحشة" (الدراجي، 2000).

وحيث إنّ " معرفة الآخر لا تتحصل بالنظر إليه من بعيد أو خارجه، بل تتحصل بالدخول إلى أعماقه و بتحسس حقيقته المحتجبة وراء التصور" (قانصو، 2004). فما حدود العلاقة التي تجمعهما؟ بل ما مستويات الصراع الذي يحكمهما؟

في إطار الرواية الجزائرية يظهر الصراع بين الأنا والآخر في الواقع الجزائري –الأدبي- و كأنه حلقات متسلسلة؛ فمن صراع مع الاحتلال الفرنسي، إلى صراع مع أصحاب الحل والربط، سيما على الصعيد الإداري، إلى صراع مع الموت بقدوم حراس النوايا/الإسلامويين.

وتبقى الحلقة مفتوحة، فصراع الأنا ينتهي دوما بالفشل ولا حيلة له غير الأمل، فهل هذا يؤسس له الواقع؟ أم أن الأنا ليس بالفاعلية التي تسمح له بإثبات وجوده أمام الآخر؟ ولا تتجلّى قوة الأنا إلا في حضوره الخطابي، إذ يتسلم دوما مشعل الكلمة الروائية، ولا يظهر الآخر إلاّ في حضوره الخطابي، إذ يتسلم دوما مشعل الكلمة الروائية، ولا يظهر الآخر إلا فيما عزا الأنا من ألم، فالحوار هو مجرد وهم يقنع به الأنا نفسه حتى يتواصل مع الآخر الذي يفضي به إما إلى التنازل أو الإقصاء. فهل الخطاب الروائي العربي فالجزائري يقصد إلى تجسيد هذه الجدلية؟ أم هي تفرض نفسها كوجهة نظر استدعاها النسيج الروائي؟؟

.4.قائمة المصادر والمراجع:

ابو هيف, ع. (2002, كانون الاول). رؤى الاخر في الرواية العربية المعاصرة. مجلة الموقف الادبي ع380
الأعرج, و. (2001). ذاكرة الماء. الجزائر: الفضاء الحر.
الأعرج, و. (2001). سيدة المقام. الجزائر: الفضاء الحر.
التلاوي, م. (1998). الذات والمهماز دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
الخطيب, م. ك. (1976). المغامرة المعقدة. دمشق: وزارة الثقافة والارشاد القومي.
الدراجي, أ. (2000, ابريل 7). ما الآخر هذا النموذج والشريك والخصم؟. ملفات ايلاف الدورية 2.
السعفي, ك. (1992). نحن والغرب. تونس: عبدالكريم بن عبدالله للنشر والتوزيع.
الطاهر لبيب. صورة الاخر العربي ناظر ومنظور إليه. تأليف لبيب الطاهر، و آخرون، مركز دراسات الوحدة العربية الجمعية العربية لعلم الاجتماع.
المانع, ح. (1990). حبل السرة. لندن: منشورات الاغتراب الأدبي.
النالوتي, ع. (1985). مراتيج. تونس: دار سراس للنشر.
بعلي, ح. (29/28 أكتوبر 2001). دلالات الخطاب السردي، شعرية القص وانتفاضة الجنس. الملتقى المغاربي حول السرديات. بشار.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

بهي, ع. (1991). الرحلة إلى الغرب ي الرواية العربية الحديثة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
جورج طرابيشي. (1977). شرق وغرب رجولة وانوثة. بيروت: دار الطليعة.
حسن حنفي. (2000). ماذا يعني علم الاستغراب؟ (الإصدار 1). بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.
حميد لحميداني. (1985). الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دراسة بنيوية تكوينية. المغرب: دار الثقافة.
حيدر, ا. ع. صورة الآخر المختلفة فكريا سوسيولوجيا الاختلاف والتعصب. Dans ل. الطاهر, & و. آخرون, صورة الآخر العربي ناظر ومنظور إليه. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية الجمعية العربية لعلم الاجتماع.
حيدوش, ا. (2003, شباط). مجلة النادي العربي للمعلومات, ع28. Récupéré sur www.abrabin.ne.
سليمان, ن. (1985). وعي الذات والعالم. اللاذقية: دار الحوار.
عبد الله العروي. (1970). الايديولوجية العربية المعاصرة. بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر.
قانصو, و. (2004). الأنا والآخر في الوعي الديني. بيروت: كتب دار النهار.
قيسومة, م. (1994). الانا والاخر ي الرواية العربية الحديثة. تونس: دار السحر للنشر.
مسعد, ر. (1995). بيضة النعامة. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.
نعنع, ح. (1989). من يجرؤ على الشوق؟. بيروت: دار الآداب.
واسيني, ا. (1982). نوار اللوز. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر.
ولد ابنو, م. (1998). مدينة الرياح. بيروت: دار الآداب.